الفصل الرابع عشر

غزو البحر

١٤٩٢ — ١٥١٧

١ — كولمبس

لقد كان « قدرا ظاهرا » أن يجرؤ امرؤ فى هذا العصر على اقتحام مخاطر الأطلنطى ليكتشف الهند أو « كاثي » إذ تحدثنا الأسطورة عن وجود « أطلانتس » عبر البحر بل إن الأساطير المتأخرة ذهبت إلى وجود نبع وراء الأطلنطى تمنح مياهه الشباب الدائم . وأدى فشل الحملات الصليبية إلى ضرورة كشف أمريكا وكانت لسيطرة الأتراك على شرقى البحر الأبيض المتوسط وما اقترفه العثمانيون فى القسطنطينية والأسر الملكية المناهضة للمسيحية فى فارس وتركستان من إغلاق الطرق البرية ومنع المرور فيها سببا فى جعل الطرق القديمة للتجارة بين الشرق والغرب باهظة التكاليف ومحفوفة بالمخاطر . وتشبثت إيطاليا وفرنسا ببقايا تلك التجارة على الرغم من كل عوامل التثبيط من ضرائب الطرق والحرب ولكن البرتغال واسبانيا كانتا بعيدتين جدا فى الغرب وكان من الصعب عليهما الاستفادة من مثل هذه الاتفاقات وكانت مشكلتهما لا تحل إلا بالعثور على طريق آخر وقد وجدت البرتغال طريقا حول افريقيا ولم يعد أمام اسبانيا إلا أن تجرب حظها فى المرور غربا .

وقد أدى تقدم المعرفة إلى إثبات كروية الأرض منذ عهد بعيد وشجعت أخطاء العلم ذاتها على الأقدام وذلك بإساءة تقدير عرض المحيط الأطلنطى وبتصوير آسيا على أنها أرض سهلة للغزو والاستثمار فى الطرف الأقصى ؛

ولقد وصل البحارة الاسكندیناویون عامی ٩٨٦ و ١٠٠٠ إلى لبرادور وعادوا يحملون نبأ العثور على قارة جديدة فسيحة، وزار كريستوفر كولمبس أيسلندا عام ١٤٧٧ ، إذا صدقنا القصة التى رواها بلسانه ، ومن المسلم به أنه سمع الروايات المأثورة التى تردد فى فخر رحلة لايف اريكسون إلى ڤنلنده Vindland .

كان المال هو كل ما تحتاجه المغامرة الكبرى وقتذاك أما الشجاعة فكانت متوفرة . وقد سجل كولمبس نفسه فى المايورازو mayorazzo أو الوصية التى حررها قبل أن يقوم برحلته الثالثة عبر الأطلنطى أنه من مواليد جنوا . حقا إنه كان فى محرراته الموجودة لدينا يتسمى بالاسم الأسبانى كريستوبال كولون ولم يستخدم قط اسمه الإيطالى كريستوفورو كولومبو ولكن المعتقد أن هذا كان بسبب كتابته بالأسبانية لأنه عاش فى اسبانيا أو لأنه كان يقوم برحلاته البحرية لحساب ملك اسبانيا لا لأنه ولد فى اسبانيا . ومن المحتمل أن يكون أجداده أسبانيين من اليهود الذين اعتنقوا المسيحية وهاجروا إلى إيطاليا ، والدليل قوى على أن الدم العبرى يسرى فى عروق كولمبس وعلى ميله لليهود . وكان والده نساجا ويبدو أن كريستوفورو امتهن هذه المهنة بعض الوقت فى جنوا وسافونا ، وقد ورد فى الترجمة الذاتية التى كتبها ابنه فرديناند أنه درس التنجيم والهندسة وعلم الكون (الكوزموجرافيا) فى جامعة بافيا وإن لم يدرج اسمه فى سجلات الجامعة ، وها هو يقول لنا بنفسه إنه أصبح بحارا فى الرابعة عشرة من عمره لأن كل طريق فى جنوا يؤدى إلى البحر .

وهاجم القراصنة عام ١٤٧٦ سفينة كان كولومبس بها نحو لشبونه وأغرقت هذه السفينة . ويروى كولمبس أنه سبح ستة أميال حتى وصل إلى الشاطىء مستعينا ببعض الحطام ولكن يبدو أن أمير البحر العظيم أطلق

لخياله العنان إذ يقول إنه سافر بعد بضعة شهور إلى إنجلترا بحارا أو قبطانا ثم سافر إلى ايسلنده فلشبونة وهناك تزوج واستقر واشتغل برسم الخرائط الجغرافية ، وكان حموه بحارا خدم الأمير هنرى الملاح ، وليس من شك فى أن كولومبوس سمع منه بعض الحكايات الممتعة عن شاطىء غينيا ، ولعله انضم عام ١٤٨٢ كضابط إلى الأسطول الذى تغالى الذى أبحر حذاء هذا الشاطىء إلى المينا ، وقرأ باهتمام كتاب البابا بيوس الثانى Historia rerum gestarum « تاريخ الأجناس » وكثيرا من التعليقات مما أوحى إليه بفكرة الطواف بحرا حول إفريقيا .

ولكن دراساته مالت به شيئاً فشيئاً نحو الغرب وعرف أن سترابون روى فى القرن الأول من عصرنا محاولة للطواف حول الكرة الأرضية وكان يعلم ما كتبه سينيكا : « بعد سنوات سيأتى عصر يطلق فيه المحيط قيود الأشياء وتظهر أرض فسيحة ويكشف فيه النبى تيفيس عوالم جديدة ولن تكون ثولى (أيسلندة ؟) أقصى طرف للأرض» ، وقد قرأ « كتاب سير ماركوبولو الذى امتدح ثروات الصين وحدد وضع اليابان على بعد ١٥٠٠ ميل شرق قارة آسيا . وكتب أكثر من ألف ملاحظة فى نسخته من كتاب بيير دالى (صورة العالم) Imago mundi وقبل التقدير الراجح لمحيط الأرض بأنه يبلغ من ١٨٫٠٠٠ إلى ١٠٫٠٠٠ ميل وبربط هذا بتحديد بولو لمكان اليابان حسب أن أقرب الجزر الأسيوية على بعد ٥٫٠٠٠ ميل غرب لشبونة وقد سمع عام ١٤٧٤ عن خطاب كتبه الطبيب الفلورنسى باولو توسكانيلى لملك البرتغال ألفونسو الخامس يشير عليه بأنه يمكن اكتشاف طريق أقصر للهند من الطريق حول افريقيا وذلك بالسفر بحرا لمسافة ٥٠٠٠ ميل غربا . وكتب كولومبوس إلى توسكانيلى وتلقى منه ردا مشجعا ونضجت الفكرة فى ذهنه .

وحوالى عام ١٤٨٤ عرض على جون الثانى ملك البرتغال أن يجهز ثلاث سفن للقيام بحركة استكشافية لمدة عام عبر الأطلنطى والعودة منها على أن يعين كولومبس أمير بحر أعظم للمحيط وحاكما دائما لكل الأراضى التى يكتشفها ، وأن يحصل على عشر كل الإيراد والمعدن الثمين الذى تحصل عليه البرتغال من تلك الأراضى (ومن الواضح أن فكرة نشر المسيحية كانت ثانوية بالنسبة للاعتبارات المادية) . وقدم الملك العرض إلى لجنة من العلماء فرفضوه على أساس أن تقدير كولومبوس للمسافة عبر الأطلنطى بأنها لا تعدو ٢٤٠٠ ميل أقل بكثير من الحقيقة (كان هذا التقدير صحيحا تقريبا للمسافة من جزر كانارى إلى جزر الهند الغربية) وعرض ملاحان برتغاليان عام ١٤٨٥ مشروعا مماثلا على الملك جون ولكنهما وافقا على تمويله بنفسيهما فمنحهما جون بركته وهـــذا أضعف الإيمان ، وانطلقا عام ١٤٨٧ متخذين طريقا أقرب للشمال تحف به الرياح الغربية الشديدة ثم عادا بخفى حنين . وجدد كولومبوس طلبه عام ١٤٨٨ فدعاه الملك لمقابلته وأقبل كولومبوس فى الوقت المناسب ليشهد العودة الظافرة لبارثولوميو دياس من رحلة ناجحة طاف فيها حول افريقيا . ولما كانت الحكومة البرتغالية تطمع فى اكتشاف طريق إلى الهند يمر بأفريقيا فإنها تخلت عن فكرة البحث عن طريق عبر الأطلنطى فتحول إلى جنوا والبندقية ولكنهما بدورهما لم يقدما له أى تشجيع لأن اهتمامهما كان موجها لاكتشاف طريق للشرق بالاتجاه شرقا . وفوض كولمبس أخاه فى جس نبض هنرى السابع ملك إنجلترا فدعاه إلى مقابلته ولكن عند ما وصلت الدعوة إلى كولمبس كان قد وضع نفسه فى خدمة أسبانيا . وكان عندئذ (١٤٨٨) فى حوالى الثانية والأربعين من عمره . طويلا نحيلا له وجه مستطيل وبشرة حمراء قانية وأنف معقوف وعينان زرقاوان بوجهه نمش وشعره أحمر فاتح بدأت تتخلله الشعرات البيضاء ويوشك أن يشتعل شيبا ، وقد وصفه ابنه وأصدقاؤه

بأنه رجل متواضع ، رزين ، وديع ، فطن ، معتدل فى طعامه وشرابه ، تقى للغاية . وزعم آخرون أنه كان معجبا بنفسه ، يعرض الألقاب التى منحت له ويبالغ فيها وأنه رفع أجداده إلى طبقة النبلاء فى خياله وكتاباته وأنه ساوم بشدة للحصول على نصيب من ذهب العالم الجديد . ومهما يكن من أمر فإنه كان يستحق أكثر مما طلب : وكان بين الفينة والفينة ينحرف عن العمل بالوصايا العشر فقد حدث فى قرطبة أن أنجبت منه بياتريس انريكيز ولدا غير شرعى عام ١٤٨٨ وذلك بعد وفاة زوجته . ولم يتزوج منها كولمبس وإن كان قد وفر لها كل شىء فى حياته ولم ينسها فى وصيته ولما كان معظم علية القوم فى تلك الأيام النشيطة قد أنجبوا أبناء من علاقات عارضة فإنه يبدو أن أحدا لم يعر هذا الحادث اهتماما .

وفى غضون ذلك كان قد قدم التماسه إلى إيزابيلا صاحبة قشطالة (أول مايو سنة ١٤٨٦) فأحالتهـــا إلى جماعة من المستشارين يرأسهم صاحب القداسة رئيس أساقفة طلبيرة . وبعد أن تشاوروا طويلا قدموا تقريرا ذكروا فيه أن الخطة غير عملية واحتجوا بأن آسيا تقع على مسافة أبعد من ناحية الغرب مما ظن كولومبس ومع ذلك فإن فرديناند وإيزابيلا منحاه راتبا سنويا قدره ١٢٫٠٠٠ مارافيدس (٨٤٠ دولارا ؟) وزوداه عام ١٤٨٩ بخطاب يأمران فيه كل البلديات الأسبانية بأن توفر له الطعام والمأوى ولعلهما كانا يريدان أن يحتفظا بحق الاختيار بالنسبة لمشروعه لئلا يمنح قارة لملك منافس بطريق المصادفة ولما رفضت لجنة طلبيرة المشروع مرة أخرى بعد أن تداولت بشأن الخطة قرر كولومبس أن يقدم المشروع إلى شارل الثامن ملك فرنسا غير أن فراى جوان بيريز رئيس رهبان دير لارابيدا أثناه عن عزمه ورتب له مقابلة مع إيزابيلا فأرسلت إليه ٢٠٫٠٠٠ مارافيدس لمواجهة نفقات رحلته إلى مقر قيادتها فى مدينة سانتافى المحاصرة

وذهب هناك واستمعت فى رقة إلى حجته ولكن مستشاريها عارضوا الفكرة مرة أخرى فاستأنف استعداداته للذهاب إلى فرنسا (يناير سنة ١٤٩٢) .

وعند هذه المرحلة الحرجة حرك يهودى متنصر سير التاريخ فقد لام لويس دى سانتاندر ، وزير مالية فرديناند ، إيزابيلا لافتقارها إلى الخيال والعزيمة ، وأغراها وذلك بأن لوح لها بالأمل فى أن تحول آسيا إلى المسيحية واقترح أن يمول الحملة بنفسه بمعاونة أصدقائه وأيده فى فكرته يهود آخرون — دون إيزاك أبرابانل Abrabanel وخوان كابريرو وأبراهام سنيور ، وتأثرت إيزابيلا بالفكرة وعرضت أن ترهن جواهرها لرفع قيمة المبلغ المطلوب ولكن سانتاندر رأى أن هذا الإجراء غير ضرورى واقترض مبلغ ١ر٤٠٠ر٠٠٠ مارافيدس من جماعة الرهبان التى كان أمينا لصندوقها وأضاف إليه مبلغ ٣٥٠ر٠٠٠ من جيبه الخاص كما حصل كولومبس بطريقة ما على مبلغ ٢٥٠ر٠٠٠ علاوة على ما سبق .

وفى السابع عشر من أبريل عام ١٤٩٢ وقع الملك الأوراق الضرورية ثم أعطى عندئذ أو بعد ذلك لكولومبس خطابا إلى خان كاثاى ، وكان هذا فى الصين وليس فى الهند التى كان يأمل كولمبس أن يصل إليها والتى ظن حتى آخر لحظة فى حياته أنه قد اكتشفها .

وفى الثالث من أغسطس أبحرت سانتاماريا (سفينة أمير البحر) وبنتا ونينيا Nina من بالوس وعلى ظهرها ثمانية وثمانون رجلا ومؤن تكفيهم لمدة عام .

٢ ـ أمريكا

واتجهوا جنوباً نحو جزر كانارى ينشدون الرياح من الشرق قبل أن يواجهوا الغرب . وبعد إقامة طويلة فى الجزر أقدموا على السير فى خط مواز لخط عرض ثمان وعشرين (٦ سبتمبر) فى مكان لا يبعد جنوبا بدرجة تكفى لينعموا بالرياح التجارية ونحن نعلم أنهم لو اتجهوا جنوبا أكثر من ذلك لقصروا المسافة إلى أمريكا وجنبوا أنفسهم ما لاقوه من عناء فى طريقهم إليها وكان الطقس لطيفا وكتب كولمبس فى سجل سير السفينة « مثل جو أبريل فى الأندلس والشىء الوحيد الذى ينقصنا هو سماع صوت البلابل » . واعتراهم القلق ثلاثة وثلاثين يوماً وكان كولمبس يقلل من المخصصات الغذائية التى تصرف لرجاله بنسبة الأميال التى يقطعونها كل يوم ولكن نظراً لأنه بالغ فى تقدير سرعته فإن بياناته كانت صحيحة برغم أنفه .

وعندما استمر سكون الرياح غير طريقه وإذ ذاك شعر البحارة ، أكثر من أى وقت مضى ـ بالضياع فى خضم البحر وهم يسيرون فيه على غير هدى . وفى التاسع من أكتوبر صعد ربانا السفينتين بنتا ونينيا على ظهر سفينة القيادة وطالبا بإلحاح بالعودة فوراً إلى إسبانيا فوعدهما كولمبس بأنه سيحقق رغبتهما إذا لم يروا الأرض خلال ثلاثة أيام وفى العاشر من أكتوبر تمرد بحارة سفينته ولكنه هدأ من ثورتهم بأن تعهد لهم بنفس الشىء . وفى الحادى عشر من أكتوبر التقطوا من المحيط غصنا أخضر يحمل أزهاراً فعادوتهم الثقة فى قائدهم . وفى الساعة الثانية من صباح اليوم التالى والقمر بدر تقريباً صاح رودريجودى تريانا القائم بالحراسة (الأرض ! الأرض !) أخيراً ها هى الأرض . .

وعند ما أقبل الفجر رأوا جماعة من الوطنيين العراة على الشاطئ وكلهم معتدلو القامة . واستقل القباطنة الثلاثة قاربا بصحبة رجال مسلحين جدفوا بهم نحو الشاطئ وركبوا وقبلوا الأرض وحمدوا والله وأطلق كولمبس على الجزيرة اسم سان سلفادور المخلص المقدس — واستولى عليها باسم فرديناند وايزابيلا والمسيح . واستقبل المتوحشون مستعبديهم فى المستقبل بدماثة المتحضرين . وكتب أمير البحر : « ما دمت قد عرفت أنهم قوم يمكن تحريرهم وهدايتهم إلى أبينا المقدس عن طريق الحب لا القهر فلكى نكسب صداقتهم أعطيت لبعضهم قلانس حمراء وللبعض الآخر خرزا وأشياء أخرى كثيرة تافهة القيمة سرتهم كثيراً . ولقد ظلوا أصدقاء أوفياء لنا وهذه أعجوبة . واقبلوا فيما بعد سابحين إلى قوارب السفينة وأحضروا معهم ببغاوات وخيوطاً من القطن . . وأشياء أخرى كثيرة فأعطيناهم فى مقابلها خرزات صغيرة . . . وأخيراً تبادلوا معنا كل ما يملكون وهم راضون كل الرضى » .

ولعل خبر « المتوحش المسالم السلس » الذى فتن روسو وشاتوبريان وهويتمان قد بدأ عندئذ وفى ذلك المكان ولكن كان من بين الأمور التى عرفها كولمبس عن الجزيرة أن هؤلاء الوطنيين كانوا عرضة لغارات تقوم بها جماعات أخرى من الوطنيين لاسترقاقهم وأنهم أنفسهم أو أسلافهم تغلبوا على أهالى البلد الأصليين . وبعد رسوهم بيومين كتب فى يومياته ملاحظة مشئومة : « إن هؤلاء الناس غير حاذقين فى استخدام الأسلحة ويمكن إخضاعهم بخمسين رجلا وحملهم على القيام بكل ما يريده المرء » . ولكن لم يكن فى سان سلفادور للأسف أى ذهب . وفى الرابع عشر من أكتوبر أقلع الأسطول الصغير بحثاً عن سيبانجو — اليابان — والذهب . وفى الثامن والعشرين من أكتوبر رسوا على كوبا وهناك أحسن الأهالى بدورهم التصرف وحاولوا أن ينضموا لضيوفهم فى إنشاد (ايف ماريا) وبذلوا جهدهم فى رسم علامة

الصليب . وعندما عرض عليهم كولومبس الذهب أبدوا له ما يدل على أنه سيجد بعضه فى نقطة بالداخل أطلقوا عليها اسم كوبانا كان — أى وسط كوبا — واعتقد أنهم يقصدون بهذا الخان العظيم أو خان الصين العظيم فأرسل أسبانيين معهما أوراق اعتماد دبلوماسية ليجدا هذا الحاكم المراوغ وعادا دون أن يلتقيا بالخان وإن كانا قد جاءا بقصة ممتعة عن الحفاوة التى استقبلا بها فى كل مكان كما أنهما قدما أول تقرير للأوربيين عن التبغ الأمريكى فقد شاهدوا رجلا وامرأة من الأهالى يدخنان أعشاب التبغ وهى ملفوفة فى سيجار أدخلاه فى الأنف وغادر كولمبس كوبا وهو يشعر بخيبة الأمل (٤ ديسمبر) وأخذ معه عنوة خمسة من شباب الوطنين ليقوما بمهمة الترجمة وسبع نساء للترفيه عنهم وقد مات الجميع وهم الطريق إلى أسبانيا .

وفى غضون ذلك كان مارتين ألونزوبينزون الربان الأول فى أسطول كولمبس قد هجره وانطلق بسفينته لينقب عن الذهب لحسابه الخاص . وفى الخامس من ديسمبر وصل كولمبس إلى هايتى وهناك ظل أربعة أسابيع وهو يلاقى من الأهالى كل ترحيب وحفاوة . وعثر على بعض الذهب وشعر أنه غدا قاب قوسين أو أدنى من الخان ولكن سفينته المعقود لها لواء القيادة اصطدمت بسلسلة من الصخور وحطمتها الأمواج والصخور عشية يوم عيد الميلاد الذى كان قد فكر بالاحتفال به كأسعد يوم فى حياته . ومن حسن الحظ أن السفينة نينيا كانت على مقربة منه فأنقذت البحار واقتحم الأهالى الطيبون أمواج البحر فى قواربهم للمعاونة فى إنقاذ معظم الشحنة قبل أن تغرق السفينة وواسى زعيمهم كولمبس فعرض عليه ضيافته وقدم له الذهب وأكد له أن هناك كمية وفيرة من هذا المعدن القاتل فى هايتى . فحمد أمير البحر الله على الذهب وسامحه على تحطيمه لسفينته وكتب فى يومياته أن فرديناند وايزابيلا سيكون عندهما الآن من الأموال ما يكفى لغزو الأرض المقدسة . وتأثر بسلوك الأهالى الحسن فترك قسما من بحارته يتوطنون لارتياد الجزيرة

بينما عاد إلى إسبانيا ليقدم تقريراً عن اكتشافاته . وفى السادس من يناير سنة ١٤٩٣ عاد بنزون وانضم إليه بسفينته بنتا وقبل كولمبس اعتذاره فقد كان يمقت العودة وليس معه إلا سفينة واحدة . وفى السادس عشر من يناير بدأ رحلة العودة للوطن .

كانت رحلة طويلة تعسة فطوال شهر يناير كانت الرياح معاكسة وفى الثانى والعشرين من فبراير هبت ريح عاصفة صدمت السفينتين الصغيرتين ولم يكن طول كل منهما يتجاوز سبعين قدما وبينما كان كولومبس ورفيقه يقتربان من شاطىء الأزور تخلى عنه بنزون مرة أخرى مؤملا أن يكون أول من يصل إلى أسبانيا بالأنباء العظيمة عن اكتشاف آسيا وألقت السفينة نينيا مراسيها بعيداً عن سانتا ماريا فى شاطئ الأزور (١٧ فبراير) وانطلق نصف البحارة إلى الشاطئ للقيام بالحج إلى مزار للعذراء فاعتقلتهم السلطات البرتغالية وألقت بهم فى السجن لمدة أربعة أيام بينما كان كولمبس يتميز غيظا على الشاطئ ثم أطلق سراحهم وأقلعت السفينة نينيا مرة أخرى ولكن عاصفة أخرى دفعتها بعيداً عن طريقها المرسوم ومزقت قلوعها فاغتم البحارة ونذروا أن يقضوا أول يوم يطأون فيه الأرض صـــائمين على الخبز والماء وأن يعملوا بالوصايا العشر . وفى الثالث من مارس رأوا شاطئ البرتغال وعلى الرغم من أن كولمبس علم أنه كان يخاطر بالوقوع فى ورطة دبلوماسية فإنه قرر أن يرسو فى لشبونه وفضل هذا على محاولة قطع الأميال المائتين وخمسة وعشرين الباقية للوصول إلى باولوس مستعينا بقلع واحد . واستقبله جون الثانى بحفاوة ورممت السفينة نينيا وفى الخامس عشر من مارس وصلت إلى باولوس بعد « عناء وهول لا حد لهما » (كما قال كولمبس) بعد مرور ١٩٣ يوما من مغادرة ذلك الميناء . وكان مارتن بنزون قد رسا شمالى أسبانيا قبل ذلك ببضعة أيام وبعث برسالة إلى فرديناند وإيزابيلا ولكنهما

رفضا أن يقابلاه هو أو رسوله ودخلت السفينة بنتا باولوس بعد يوم من وصول السفينة نينيا وفر بنزون يغمره الفزع ويجلله العار الذى جلبه على وطنه ولازم فراشه حتى مات .

٣ — مياه المرارة

ورحب الملك والملكة بكولومبس فى برشلونه وعاش فى البلاط ستة شهور وأنعم عليه بلقب «أمير البحر الاوقيانوس ويقصد به الأطلنطى غرب شواطئ الأزور » . ونصب حاكما على العالم الجديد أو كما وصف نفسه « نائب الملك وحاكم عام الجزر وأراضى آسيا والهند » . وعند ما شاع أن جون الثانى يجهز أسطولا لعبور الأطلنطى استغاث فرديناند بالبابا الكسندر السادس . وطلب منه أن يحدد حقوق أسبانيا فى « البحر الأوقيانوس » فعين البابا الأسبانى ، فى سلسلة من المنشورات (١٤٩٣) لأسبانيا ملكية كل الأراضى التى لا تدين بالمسيحية فى الغرب ، وللبرتغال كل الأراضى فى الشرق ويفصل بينهما خط وهمى مرسوم بحيث يمر من الشمال إلى الجنوب على بعد ٢٧٠ ميلا غرب الأزور وجزر الرأس الخضراء ولكن البرتغاليين رفضوا قبول هذا الخط الفاصل وأوشكت الحرب أن تنشب بين الحكومتين المتنافستين لولا أنهما وافقتا فى معاهدة تورديسيلاس (٧ يونيه سنة ١٤٩٤) على أن يمر ذلك الخط موازيا لخط الزوال الطولى على بعد ٢٥٠ فرسخا غرب جزر الرأس الخضراء بالنسبة للاكتشافات التى تمت قبل ذلك التاريخ ، ولكن على بعد ٣٧٠ فرسخا غربا بالنسبة للاكتشافات التى تتم بعد ذلك . (يقع الطرف الشرق للبرازيل شرق هذا الخط الثانى) وقد أطلقت منشورات البابا على الأرض الجديدة « جزر الهند » وقبل العلماء أمثال بييترو مارتيرى وانجيرا رأى كولومبس بأنه قد وصل إلى آسيا واستمر هذا الوهم حتى طاف ماجلان حول الكرة الأرضية .

وقام فرديناند وإيزابيلا يحدوهما الأمل فى الحصول على الذهب بتزويد كولومبس بأسطول جديد يتكون من سبع عشرة سفينة مجهزة بألف ومائتى بحار وحيوانات للشروع فى تربية قطعان من الماشية والأغنام فى جزر الهند وخمس من رجال الدين لتلقى اعترافات الإسبانيين ولهداية « الهنود » . وقد بدأت الرحلة الثانية من اشبيليه يوم ٢٥ سبتمبر سنة ١٤٩٣ وبعد تسعة وثلاثين يوما (مقابل سبعين يوماً فى الرحلة الأولى) شاهد الحارس جزيرة أطلق عليها كولمبس اسم « دومينيكا » لأنهم كانوا فى يوم الأحد . ولم ينزلوا إلى الأرض هناك لأن أمير البحر اشتم رائحة فريسة أكبر . ومر خلال مجموعة جزر الأنتيل الصغرى فى أقصى الغرب وتأثر كثيرا بعددها فأطلق عليها اسم « إحدى عشر ألفاً من العذارى» . وهى لاتزال جزراً عذراء وتابع رحلته واكتشف بويرتوريكو ، وتمهل هناك قليلا ثم أسرع ليرى ما حدث للمستوطنين الإسبان الذين تركهم فى هايتى منذ عشرة شهور فلم يجد منهم رجلا على قيد الحياة ، إذ أن الأوربيين طافوا بالجزيرة وسطوا على ذهب الأهالى وسبوا نساءهم وأقاموا فردوسا استوائيا عاش فيه كل رجل مع خمس نساء وتنازعوا فيما بينهم وقتل بعضهم بعضا أما الباقون فقد قضى عليهم الهنود الذين انتهكت حرماتهم .

وسارت سفن الأسطول شرقاً بحذاء شاطئ هايتى ، وفى الثانى من يناير عام ١٤٩٤ أنزل أمير البحر رجالا وشحنة لتأسيس مستعمرة جديدة أطلق عليها اسم « إيزابيلا » . وبعد أن أشرف على بناء مدينة وبعد ترميم سفنه سافر ليرتاد كوبا . وعندما عجز عن الطواف حولها استنتج أنها قارة آسيا ولعلها شبه جزيرة الملايو . وفكر فى الالتفاف حولها والدوران بالكرة الأرضية ولكن سفنه لم تكن مجهزة لهذه الرحلة ؛ فعاد إلى هايتى (٢٩ أكتوبر سنة ١٤٩٤) وهو يتساءل ماذا حدث لمستعمرته الجديدة . وصدم عندما وجد أنها تصرفت كالمستعمرة السابقة وأن الإسبانيين اغتصبوا

النساء الوطنيات ونهبوا مخازن طعام الأهالى وخطفوا أولاد الوطنيين ليخدموهم كالعبيد وأن الوطنيين قتلوا كثيراً من الإسبان على سبيل الانتقام . وقامت البعثات التبشيرية بمحاولة صغيرة لتنصير الهنود وانضم راهب إلى جماعة الساخطين الذين عادوا إلى إسبانيا ليقدموا للملك والملكة تقريرا لا يشجع عن موارد هايتى الذائعة الصيت . وقد أصبح كولومبس نفسه الآن تاجرا للعبيد إذ أرسل حملات لأسر ١ر٥٠٠ وطنى وأعطى للمستوطنين أربعمائة سن هؤلاء وبعث إلى إسبانيا بخمسمائة مات منهم مائتان أثناء الرحلة وبيع الباقون فى إشبيليه ولكنهم ماتوا بعد بضع سنوات بعد أن عجزوا عن تكييف أنفسهم مع المناخ البارد ، ولعلهم لم يحتملوا همجية المدنية وترك كولومبس لأخيه تعليمات بنقل المستعمرة سن إيزابلا إلى موقع أحسن فى سانتو دومينجو (ثيودادتريخليو الآن) وسافر إلى إسبانيا (١٠ مارس سنة ١٤٩٦) ووصل إلى قادس بعد رحلة تعسة استمرت ثلاثة وتسعين يوما . وأهدى للملك والملكة الهنود وسبائك الذهب ولم تكن بالكثير ، إلا أنها خففت من الشكوك التى ثارت لدى البلاط حول الحكمة من صب مزيد من الأموال فى الأطلنطى ولم يشعر أسير البحر بالارتياح وهو فوق الأرض ، فقد كان ملح البحر يجرى فى عروقه فالتمس تزويده بثمانى سفن على الأقل للقيام بمحاولة أخرى بحثا عن الثروة ، ووافق الملك والملكة و فى مايو عام ١٤٩٨ سافر كولمبس مرة أخرى.

وقد اتجهت الرحلة الثالثة نحو الجنوب الغربى إلى خط عرض عشرة ثم سارت غربا فى هذا الخط المستقيم . وفى الحادى والثلاثين من يوليو شاهد البحارة جزيرة كبيرة أطلق عليها القائد التقى اسم « ترينيداد » . وفى الحادى والثلاثين من أغسطس رأى قارة أمريكا الجنوبية وربما كان ذلك قبل أو بعد فسبوتشى . وبعد استكشاف خليج باريا أبحر — نحو الشمال الغربى ووصل إلى سانتودومينجو يوم ٣١ أغسطس فوجد أن المستعمرة الثالثة قد بقيت ولكن كان ربع الخمسمائة من الإسبان الذين تركهم عام ١٤٩٦

يشكون من مرض الزهرى ، وانقسم المستوطنون إلى فريقين متعاديين وكانا عندئذ على حافة الحرب . ولتهدئة التذمر أقطع كولمبس كل رجل مساحة كبيرة من الأرض وسمح له باسترقاق الوطنيين والإقامة فيها ، وأصبحت هذه قاعدة تتبع فى المستعمرات الأسبانية ، وأنهكت الصعاب وخيبات الأمل وداء النقرس ومرض فى العينين قوى كولومبس فى ذلك الوقت فانهار تحت وطأة هذه المشكلات وكان ذهنه يتكدر بين الفينة والفينة وأصبح يستثار بسهولة ؛ متذمرا مستبدا ، شحيحا ، جائرا فى عقابه أو هذا على الأقل ما زعمه كثير من الأسبان فقد تميزوا من الغيظ تحت حكم رجل إيطالى . وأدرك أن مشكلات إدارة المستعمرة كانت دخيلة عليه بالنسبة لتدريبه ومزاجه . وأرسل فى أكتوبر عام ١٤٩٩ بعثتين إلى أسبانيا مع التماس لفرديناند وإيزابيلا لتعيين نائب للملك يساعده فى حكم الجزيرة .

وأخذه الملكان بكلمته وعينا فرانشسكو دى بوباديلا ولكنهما ذهبا إلى أبعد مما طلب أمير البحر فخولا نائبهما سلطة كاملة بل سلطة تفوق سلطة كولمبس . ووصل بوباديلا إلى سانتو دومينجو بينما كان كولمبس غائبا وسمع كثيرا من الشكايات من الأسلوب الذى كان يحكم به كريستوفورو وأخواه بارتولومى وديجو ما تسمى الآن باسم هسبانيولا وعنـــد ما عاد كولومبس ألقى به بوباديلا فى غياهب السجن والأغلال فى ذراعيه والسلاسل فى قدميه وبعد إجراء تحقيق أرسل النائب الإخوة الثلاثة إلى أسبانيا (أول أكتوبر عام ١٥٠٠) وعندما وصل كولومبس إلى قادس كتب خطابا مؤثرا إلى أصدقائه فى البلاط « لقد انقضت سبعة عشر عاما منذ حضرت لأخدم هذين الأميرين بمشروع جزر الهند ، ولقد أضعت من عمرى ثمانية أعوام فى النقاش وفى النهاية رفضاه كأن الأمر دعابة . ومع ذلك لم أيأس . . . وها أنذا قد وضعت هناك تحت إمرتهم أرضا تزيد عما

لديهم فى أفريقيا وأوروبا وأكثر من ١ر٧٠٠ جزيرة . . . وفى سبع سنوات قمت أنا بمشيئة الله ، بهذا الغزو ، وفى الوقت الذى كنت أنتظر فيه المكافأة وأتطلع إلى التقاعد قبض على بلا جريرة وأرسلت للوطن مصفدا بالأغلال . . . ووجهت إلى تهمة الحقد على أساس الاتهامات التى وجهها إلى مدنيون ثاروا وأرادوا الاستيلاء على الأرض . . . إنى أرجو من مراحمكم أن تقرأوا جميع أوراقى بحماسة المسيحيين المخلصين الذين وضع فيهم سموهما ثقتهما وأن تفكروا مليا كيف ألوث شرفى وخلقى فى أواخر أيامى دون سبب ، أنا الذى جاء من أقصى البلاد لخدمة هذين الأميرين دون أن ألقى منهما عدالة ولا رحمة » .

وكان فرديناند مشغولا بتقسيم مملكة نابلى مع لويس الثانى عشر ، ومرت ستة أسابيع قبل أن يأمر بإطلاق سراح كولومبس وأخويه ودعوتهم إلى البلاط واستقبلهم الملك والملكة فى قصر الحمراء وواسياهم وأعادا لهم الاعتبار وإن كانوا لم يصلوا إلى سلطاتهم فى العالم الجديد . وكان الملكان ملزمين بشروط التسليم أو الاتفاقية التى وقعاها عام ١٤٩٢ بتخويل كولومبس سلطانا كاملا على الأراضى التى اكتشفها ، ولكنهما شعرا بأنه لم يعد جديرا بممارسة هذه السلطة فعينا دون نيكولاس دى أوفاندو حاكما جديدا على جزر الهند . ومهما يكن من أمر فإنهما سمحا لأسير البحر أن يحصل على كل حقوقه من أملاكه فى سانتو دومينجو وكل ما يستحق له حتى ذلك الوقت من التنقيب عن الذهب ومن التجارة . وعاش كولومبس ما بقى من عمره فى رغد من العيش . ولكنه لم يكن راضيا . وألح على الملك والملكة أن يمداه بأسطول آخر ومع أنهما لم يتبينا بعد ما إذا كان « مشروع جزر الهند » سيعود عليهما بربح صاف فإنهما شعرا بأنهما يدينان له بمحاولة أخرى . وبدأ كولومبس رحلته الرابعة من قادس بأربع سفن على ظهرها مائة وأربعون رجلا منهم أخوه

بارتولومى وابنه فرناندز ، وذلك فى اليوم التاسع عام ١٥٠٢ . وفى التاسع والعشرين من يونيه أحس بزوبعة فى الجو وفى مفاصله ، فرسا فى بقعة آمنة من شاطئ هايتى قرب سانتو دومينجو ، وكان فى الميناء الرئيسى ثلاثون سفينة على وشك الإبحار إلى إسبانيا . وبعث كولومبس برسالة إلى الحاكم يبلغه فيها بأن إعصاراً سوف يهب وأشار عليه بأن يؤخر سفر السفن قليلا . ولكن أوفاندو أعرض عن هذا التحذير وأرسل الأسطول وهبت الزوبعة الهوجاء ونجت منها سفن أمير البحر ولم يصبها إلا أقل الضرر ، أما سفن أسطول الحاكم فقد تحطمت جميعا إلا واحدة وغرق خمسمائة رجل ومنهم بوباديلا وغاصت فى أعماق البحر شحنة من الذهب .

وليس من شك فى أن كولمبس بدأ عندئذ أصعب الشهور الحافلة بالأسى فى حياته المضطربة — فقد استأنف سيره غربا ووصل إلى هندوراس وارتاد شاطئ نيكاراجوا وكوستاريكا مؤملا أن يجد مضيقاً يتيح له أن يطوف بالأرض : وفى الخامس من ديسمبر عام ١٥٠٢ هبت ريح عاصفة مصحوبة بالمطر وصف كولومبس فى يومياته قوتها العاتية : « ظللت تائها لمدة تسعة أيام وضاعت كل بارقة أمل لى فى الحياة . لم تر عيناى قط بحراً كهذا هائجاً عالى الأمواج ، يغطيه الزبد . إن الرياح لم تمنع تقدمنا فحسب بل إنها لم تتح لنا أية فرصة للسير وراء لسان من الأرض يعتصم به من العاصفة ومن ثم اضطررنا إلى مواصلة السير فى هذا المحيط الملعون ونحن نتقلب فيه كالقدر حين يغلى على النار ، ولم تبد السماء قط مخوفة كما بدت فى هذا اليوم فقد ظلت يوماً وليلة ترسل شواظا من نار يلسعنا كألسنة اللهب . وتفجر البرق بشدة حتى أننى كنت فى كل مرة أتساءل عما إذا كانت الرياح قد حطمت صوارى وانتزعت قلوعى . وكانت ومضات البرق تتوالى بعنف وبصورة مروعة حتى اعتقدنا جميعاً أن السفن توشك أن تنفجر .

ولم تتوقف الأمطار عن الهطل طوال ذلك الوقت . وأنا لا أقول إنها كانت تمطر فقد كانت المياه تتدفق حتى خيل إلى أنه طوفان آخر . وكان الرجال منهوكى القوى وتمنوا الموت ليضع حداً لآلامهم المروعة » .

وإلى جانب ما كانت تحدثه الريح والمطر والبرق وسلسلة الصخور القريبة من فزع فقد هب إعصار عاقص ينشر الرذاذ البحر وكان قريبا جداً إلى درجة الخطورة من السفن وبدأ يقذف المـــاء إلى أعلى بحيث يطاول السحب فتناول كولمبس كتابه المقدس وقرأ فيه كيف هدا المسيح العاصفة فى كابيرناوم ثم تعوذ من الإعصار ورسم صليبا فى السماء بسيفه وإذ ذاك يقال لنا إن قمة الماء انهارت وانتهى هياج البحر بعد مرور اثنى عشر يوماً مروعة ، ورسا الأسطول فى ميناء قرب الطرف الشرقى الحالى لقناة بناما، وهناك احتفل كولومبس ورجاله بعيد الميلاد عام ١٥٠٢ وبرأس السنة الجديدة عام ١٥٠٣ وقلوبهم مثقلة بالحزن دون أن يدور بخلدهم أن المحيط الهادى لا يبعد عنهم إلا أربعين ميلا .

وتوالت المصائب . فبينما كان ثلاثة عشر بحاراً يجدفون فى قارب من قوارب سفينة القيادة نحو النهر للحصول على ماء عذب هاجمهم الهنود ولقى جميع الأسبان مصرعهم ما عدا رجل واحد وضاع القارب . واضطرو إلى التخلى عن سفينتين أتى السوس عليهما ولم تعودا صالحتين للملاحة أما الســـفينتان الباقيتان فقد كان بهما كثير من الخروق وكان لا بد من تشغيل المضخات ليل نهار وأخيراً أثبت السوس أنه أقوى من الرجال ولم يكن هناك بد من إرساء السفينتين الباقيتين على شاطئ جامايكا (٢٥ يونيه سنة ١٥٠٣) ، وهناك أقام البحارة البائسون سنة وخمسة شهور وكانون يعتمدون فى طعامهم على صداقة الأهالى المتقلبة والذين لم يكن لديهم أنفسهم ما يستغنون عنه إلا النذر القليل . وتطوع ديجو منديز ، الذى كان لرباطة جأشه فى مواجهة كل هذا الضيق الفضل فى عدم تردى كولمبس فى هوة اليأس ، أن يرأس

جماعة من ستة من المسيحيين وعشرة من الهنود ويستقلوا قاربا منحوتاً من من جذع شجرة لقطع ٤٥٥ ميلا — منها ثمانون ميلا لا ترى بالبصر من فوق الأرض — إلى سانتو دومينجو لطلب النجدة . ونفد زادهم من الماء فى تلك المغامرة ومات بضعة هنود . ووصل منديز إلى هدفه ولكن أوفاندو لم يقدم أو يستغنى عن سفينته حتى مايو عام ١٥٠٤ لنجدة أمير البحر . وما أن حل شهر فبراير حتى خفض هنود جامايكا هداياهم من الطعام للملاحين الذين جنحت سفنهم إلى الحد الذى بدأ فيه الأسبان يتضورون جوعاً ، وكان مع كولمبس تقويم رجيومونتانوس الفلكى الذى جاء بحسباناته خسوف للقمر يوم ٢٩ فبراير ، فاستدعى زعماء الوطنين وأنذرهم بأن الله غاضب بسبب سماحهم بتجويع رجاله وأنه سيحجب عنهم ضوء القمر فسخروا منه ولكن عندما بدأ الخسوف سارعوا بإحضار الطعام إلى السفن . وعندئذ طمأنهم كولمبس وقال إنه دعا الله أن يعيد للقمر ضياءه وأنه وعده سبحانه وتعالى أن الهنود سيطعمون المسيحيين جيداً بعد هذا . وعاد القمر للظهور .

ومرت أربعة شهور أخرى قبل أن يصلهم العون وحتى ذلك الوقت كانت السفينة التى أرسلها أوفاندو قد اتسعت خروقها فلم يكن أمامها إلا أن تعود إلى سانتو دومينجو وسافر كولمبس مع أخيه وابنه فى سفينة أشد متانة إلى إسبانيا فوصلوا فى اليوم السابع من نوفمبر بعد رحلة طويلة واجهوا فيها العواصف ، واغتم الملك لأنه لم يعثر على مزيد من الذهب ولم يكتشف مضيقا يوصل إلى المحيط الهندى ، ولم يجد فرديناند وايزابلا التى كانت تحتضر ، وقتا لمقابلة البحار الذى اشتعل رأسه شيبا بعد عودته أخيراً من البحر . وكانت عشوره « من هايتى لا تزال تدفع له . . . وكان يشكو من داء النقرس لا من الفاقة . وعندما وافق فرديناند أخيراً على مقابلة كولمبس لم يستطع أمير البحر وقد بدا أكبر عمراً من سنواته الثمانية والخمسين . أن يتحمل مشاق الرحلة إلى بلاط الملك فى سيجوفيا إلا بصعوبة بالغة وطالب بالألقاب والحقوق

والدخول التى وعد بها عام ١٤٩٢ ، فاعترض الملك وعرض عليه ضيعة كبيرة فى قشتالة فرفض كولمبس . ولاحق البلاط إلى سلمنقة وبلد الوليد ، وهناك مات يوم ٢٠ مايو سنة ١٥٠٦ محطم الجسد كسير الفؤاد ولم يتيسر قط لأحد أن يعيد رسم خريطة الأرض على هذا النحو .

٤ ــ المنظور الجديد

والآن بعد أن أضاء كولمبس الطريق اندفع مائة ملاح آخر إلى العالم الجديد ، ويبدو أن هذا الاسم قد استخدمه لأول مرة تاجر فلورنسى يطلق اسمه الآن على الأمريكيتين فقد أرسلى آل مديتشى إلى اسبانيا أميريجو فسبوتشى ليقوم على شئون مصرف فلورنسى وفاز عام ١٤٩٥ بعقد ينص على إعداد اثنتى عشرة سفينة لفرديناند وأصيب بحمى الكشف وزعم فى خطابات أرسلها فيما بعد (١٥٠٣ ــ ١٥٠٤) لأصدقاء فى فلورنسا أنه قام بأربع رحلات إلى ما أسماه بالعالم الجديد وأنه فى إحدى هذه الرحلات فى اليوم السادس عشر من يونيه عام ١٤٩٧ ، وصل إلى قارة أمريكا الجنوبية . ولما كان جون كابوت قد وصل إلى جزيرة كيب بريتون فى خليج سانت لورانس فى اليوم الرابع والعشرين من يونيه عام ١٤٩٧ وشاهد كولمبس فنزويلا عام ١٤٩٨ فإن قصة فسبوتشى تنسب له أنه كان أول أوروبى وصل إلى قارة فى نصف الكرة الغربى منذ عهد لايف اريكسون (سنة ١٠٠٠) ولكن ما اتسمت به روايات فسبوتشى من عدم الدقة وما خالطها من اضطراب ألقى ظلالا من الشك على مزاعمه ومما يجدر ذكره أن كولمبس ، والذى كان فى وسعه عندئذ أن يحكم على مدى وثوق أخبار فسبوتشى عهد إليه عام ١٥٠٥ بخطاب لتسليمه إلى دييجو ابن أمير البحر . وفى سنة ١٥٠٨ نصب فسبوتشى كبيراً لجميع الربابنة فى أسبانيا واحتفظ بهذا المنصب حتى وفاته .

وقد نشرت نسخة لاتينية من إحدى رسائله فى سان دييه (اللورين)

فى أبريل عام ١٥٠٧ . واستشهد مارتن فالدسيمولر ، أستاذ (الكوزموجرافيا) علم الكون بجامعة سان دييه ، بهذا الخطاب فى « مقدمة لعلم الكون » الذى نشره هناك فى تلك السنة وقبل رواية فسبوتشى واعتبرها جديرة بالثقة واقترح أن يطلق اسم أمريجى على ما نسميها الآن أمريكا الجنوبية .

وفى سنة ١٥٣٨ استخدم جير هاردوس ميركانور اسم « أمريكا » فى إحدى خرائطه الشهيرة وأطلقه على كل نصف الكرة الغربى . ومن المتفق عليه أن فسبوتشى قام عام ١٤٩٩ إن لم يكن عام ١٤٩٧ ، مع ألونزو دى أوخيد بارتياد شاطئ فنزويلا وفى سنة ١٥٠٠ عقب اكتشاف كابرال مصادفة للبرازيل ارتاد فيسنت Vicente بنزون ، وكان ربانا للسفينة نينيا فى رحلة كولمبس الأولى ، الشاطئ البرازيلى واكتشف الأمازون . وفى سنة ١٥١٣ شاهد فاسكونونيز دى بالبوا المحيط الهادى واكتشف بونس دى ليون ، فولريدا ، وهو يحلم بالعثور على ينبوع الشباب . وكان للاكتشافات التى بدأها هنرى الملاح وتبعه فيها فاسكودا جاما وبلغت أوجها فى عهد كولمبس وانتهت بماجلان ، أثر فى قيام أعظم ثورة تجارية فى التاريخ قبل اختراع الطائرة . فتحت البحار الغربية والجنوبية للملاحة والتجارة وأنهت عهد البحر الأبيض المتوسط فى الحضارة وبدأت عهد الأطلنطى . وكلما ازداد تدفق الذهب من أمريكا إلى أسبانيا ازداد التدهور الاقتصادى فى ولايات البحر الأبيض المتوسط بل وفى تلك المدن الواقعة فى جنوب ألمانيا مثل أوجسبرج ولومبرج ، التى كانت ترتبط تجارياً بإيطاليا . ووجدت دول الأطلنطى فى العالم الجديد مخرجا لفائضها من السكان ولطاقاتها الاحتياطية ولمجرميها ووجدت هناك أسواقاً رائجة لبضائعها الأوروبية . وازدهرت الصناعة فى أوروبا الغربية وطالبت بالاختراعات الآلية وبأشكال أحسن من الطاقة مما أدى إلى الثورة الصناعية . واستوردت نباتات جديدة من أمريكا لإثراء الزراعة الأوروبية — البطاطس والطماطم والخرشوف والقرع العسلى

والذرة . وأدى تدفق الذهب والفضة إلى رفع الأسعار وتشجيح أصحاب المصانع وإنهاك قوى العمال وزيادة الدائنين والإقطاعيين وأثارت فى أسبانيا حلم السيطرة على العالم وقضت عليه .

ولم تكن الآثار الأدبية والذهنية لهذه الاكتشافات بأقل من النتائج الاقتصادية والسياسية فقد انتشرت المسيحية فوق رقعة واسعة من نصف الكرة الأرضية وكسبت الكنيسة الكاثوليكية الرومانية من الأنصار فى العالم الجديد أكثر مما سلبهم منها الإصلاح الدينى فى العالم القديم . وتلقفت أمريكا اللاتينية اللغتين الإسبانية والبرتغالية اللتين أثمرتا أدبا قويا مستقلا . ولم تتمسك أخلاق الأوروبيين بهذه الاكتشافات إذ تدفقت وحشية الأوربيين ، التى لا تخضع لقانون ، إلى أوربا مع البحارة والمستوطنين العائدين وجاءت بالإفراط فى العنف والشذوذ الجنسى . وتأثر الفكر الأوروبى كثيراً بالكشف عن هذه الشعوب والعادات والمعتقدات الدينية الكثيرة وعانت المذاهب الدينية من الاحتكاك المتبادل بل إنه فى الوقت الذى كان البروتستانت والكاثوليك يشتبكون فى حروب مدمرة من أجل مذاهبهم المتخاصمة فإن هذه المذاهب كانت تذوب فى الشكوك التى يثيرها التثقيف وما يستتبع ذلك من تسامح .

يضاف إلى كل هذا أن الاعتزاز بالعمل الفذ ألهم العقل البشرى فى اللحظة التى كان فيها كوبرنيكوس على وشك أن يقلل من الأهمية الكونية للأرض وسكانها إذ شعر الناس أن شجاعة العقل البشرى قد تغلبت على دنيا المادة . وأنكر الاختصار والشعار السائد فى القرون الوسطى بجبل طارق — لاشىء خلفه — وأصبح هذا الشعار الآن — خلفه الكثير — وزالت كل الحدود وأصبح العالم مفتوحا وبدا كل شىء ممكنا . والآن بدأ التاريخ الحديث بموجة طاغية تتسم بالإقدام والتفاؤل .